بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الحكيم الكريم، العلي العظيم، السميع العليم، الرءوف الرحيم، الذي أسبغ على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، كما هو أشد فرحا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وأرحم الراحمين، الذي تعرَّف إلى خلقه بصفاته وأسمائه، وتحبب إليهم بإحسانه وآلائه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ختم به النبيين وأرسله رحمة للعالمين، وبعثه بالحنيفية السمحة، والدين المهيمن على كل دين، فوضع به الآصار والأغلال، وأغنى بشريعته عن طرق المكر والاحتيال، وفتح لمن اعتصم بها طريقا واضحا ومنهجا، وجعل لمن تمسك بها من كل ما ضاق عليه فرجا ومخرجا، فعند رسول الله ﷺ السعة والرحمة، وعند غيره الشدة والنقمة.

فالرحمة نعمة من نعم الله تعالى لأهل الأرض، وهي جزء من مائة رحمة نزلت عليهم يتراحمون بها فيما بينهم، كما أنها صفة يتصف بها الإنسان وخلق من أخلاقه، بل إن طبع الرحمة متأصل في الحيوان ذاته، وبالرغم من أنها مزروعة في طبع بني آدم، إلا أنها قد تنعدم وتنزع من قلوبهم تارة أخرى، إذا لم يحافظوا عليها، ولم يحيطوها بسياج الرحمن، ولم يسعوا لتثبيتها وتأصيلها، وفق تعاليم الإسلام.

ولذا جاء الإسلام ليقرر هذا المبدأ عبر توجيهات القرآن، فاخبرنا بأن الرحمة صفة من صفات الله تعالى، واسم من أسمائه الحسنى، بل نلاحظ أن كل سورة تبدأ بالبسملة، التي تحوي اسم الله الرحمن الرحيم، ليُعلن أن كل سورة تحمل في طياتها الرحمة، وأن هذا القرآن رحمة للعالمين، فما أكرم هذا الإنسان وما يناله من شرف، إذا أخذ بهذه الصفة، واتصف بها، وجعلها خلقا من أخلاقه، ومسلكا في حياته، لينال رحمة الله تعالى، فإذا كان خالقه عز وجل جعلها اسما من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته فمن باب أولى أن يتصف بها،

فالراحمون يرحمهم الرحمن، جاء في الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـــهِ ﷺ : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي الـــسَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ[1] مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)[2].

إن حصول الرحمة يتأتى باجتماع لين الفؤاد إلى رقة القلب، ويجب تهيئة الجو المناسب للرحمة، فالرحمة لا تنزع إلا من شقي، ابتعد عن الهدى إلى الضلال والتيه، فـــإذا كانـــت الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته، فيجب على المرء تحصيل مبتغـــاه، وســـلوك طريقـــه الصحيح لـــه، وتأمل دعاء الرسول ﷺ حين يدعو ورجاءه رحمة ربه، قال ﷺ : (دعوات المكروب: اللّهم رحمتَك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت)[3]، فحتى ينال المؤمن رحمة الله، يسأل ربه أن لا يكله إلى نفسه، ولو طرفة عين، وأن يصـــلح لـــه شأنه كله، فرجاء أو تمني الرحمة، يقتضي السعي لها، وتمهيد السبيل لها، وتهيئة سبل نيلها.

فالرحمة تقتضي الحزم لا الإهمال، ومما ينبغي أن يعلم، أن الرحمة صفة تقتضي إيـــصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقيـــة، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود عليه بالضرر، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنـــه أعلـــم بمصلحته، فابتلاؤه لـــه وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته يعتبر من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه، وقد جاء في الأثر: (إن المبتلى إذا دعـــي لـــه: اللهم ارحمه يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به رحمته؟ وفي أثر آخر: (إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كمـــا

1 ـ شجنة: عروق الشجر المشتبكة.
2 ـ سنن الترميذي، أبو عيسى خحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، برقم 1847، وقال: حديث صحيح حسن، المكتبة الإسلامية، 1983م.
3 ـ صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، رواه أبو داود 324/4، وأحمد 42/5، وحسنه الألباني، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، 1409هـ / 1989م.

يحمي أحدكم مريضه)، فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه، كيف وهو الجواد الماجد الذي لـــه الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده، أقل من ذرة في جبال الـــدنيا ورمالها.

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي، رحمة وحمية، لا حاجة منـــه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنـــه، فهـــو الجـــواد الكريم.

ومن رحمته أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنـــوا إليهـــا، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحـــان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذرهم نفـــسه لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالى:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]، قال غير واحد من الـــسلف: (مـــن رأفته بالعباد أن حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به).

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الـــضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة، أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء وأفضله وأوجبه وبالله التوفيق[2].

ولهذا فالرحمة لها معنى شامل، وليست ذلك المفهوم الضيق عند بعض الناس، فـــالإبتلاء رحمة من الله بعبده، وحرمان العبد من شهواته رحمة به، والأوامر والنواهي رحمة مـــن الله تعالى بعباده، وذلك كله لينتقى العبد المخلص لله تعالى، الذي يستحق دخول دار رحمته في الآخرة، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صـــالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

---

1 - آل عمران من الآية 30.

2 - إغاثة اللهفان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، 174/2، دار المعرفة، بيروت ، ط2، 1395هـ / 1975م.